فصل
في غيرة الحيوانات

ونحن نأسف أسفًا بالغًا علىٰ أن نذكر الحيوانات فيما نحن بصدده، ولكن قد يكون في هذا وخز للضمير، وتقريع للحس، وتنبيه للعقل، فإنّ الإنسان الحرّ الأبيّ الشّريف الفاضل إذا ضرب له المثل بالدون أنف من ذلك ولم يرضَ أن ينزل إلَىٰ مرتبة دونيّة.

وكما قال أبو الطّيّب المتنبي:

ولعلَّ عتبك محموداً عواقبه
فربّما صحّت الأجسام بالعلل

وقال ابن المقفع في كتاب «كليلة ودمنة»: «قال الفيلسوف: أيّها الملك إنّ طبائع الخلق مختلفة، وليس مما خلقه الله في الدُّنيا مما يمشي علىٰ أربع أو

علىٰ رجلين أو يطير بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان، ولكن من النّاس البرّ والفاجر، وقد يكون في بعض السباع والبهائم والطير ما هو أوفىٰ منه ذمة، وأشد محاماة علىٰ حرمه وأشكر للمعروف، وأقوم به».

ومعنىٰ ذلك: أنّ بعض الحيوانات قد تكون أفضل من بعض الآدميين في أخلاق معينة، ويشهد لهذا المعنىٰ قول الله - سبحانه وتعالىٰ - : ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

ونرجع إلىٰ ما أردنا أن نستشهد به وهو خبر أورده البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون قال: «رأيت في الجاهلية قِرْدة اجتمع عليها قِرَدَة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم».

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: ولقد ساق

الإسماعيلي هذه القصة مطولة من طريق عيسىٰ بن حطان عن عمرو بن ميمون قال: «كنت في اليمن في غنم لأهلي، وأنا علىٰ شرف فجاء قرد مع قردة فتوسد يدها، فجاء قرد أصغر منه فغمزها فسلت يدها من تحت رأس القرد الأول سلا رفيقًا وتبعته، فوقع عليها، وأنا أنظر، ثُمَّ رجعت، فجعلت تُدخل يدها تحت خد الأول برفق، فاستيقظ فزعًا، فشمّها فصاح، فاجتمعت القرود فجعل يصيح ويومئ إليها بيده، فذهب القرود يمنة ويسرة، فجاءوا بذلك القرد أعرفه، فحفروا لهما حفرة فرجموهما، فلقد رأيت الرجم في غير بني آدم».

فهذا حيوان بهيم لا عقل له، ولكنّه تحركت فيه داعية الفطرة، وغار علىٰ عرضه وأبىٰ وأنف أن يشاركه غيره في أنثاه ولم يتحمل هذا، وأيضًا لم

يرضَ بقية القرود بذلك؛ لذلك أقامُوا حدّ الرجم عليهما، والذي فُرِض علىٰ أهل الكتاب فعطّلوه، وفُرِض علىٰ المسلمين فعطّلوه أيضًا، بل جعلوا الزّنا حرية شخصية، ولا شيء علىٰ فاعله طالما كان بالتراضي ولم يكن في الطريق العام، ونسأل الله عز وجل السّلامة، وأن لا يؤاخذنا بما فعل السُّفهاء منّا.

فهذا الحيوان البهيم - مع الأسىٰ البالغ والأسف الشديد - عنده من النخوة والحمية ما لا يوجد عند كثير من بني آدم، بل ما لا يوجد عند كثير ممن ينسبون أنفسهم إلىٰ الإسلام اليوم.

وليس القرد الحيوان الوحيد الذي يتّصف بخلق الغيرة، بل يوجد الكثير من الحيوانات تغار علىٰ أعراضها.

أيرضىٰ عاقل أو أحد عنده أثارة من نخوة أو بقيّة

من رجولة أن ينزل عن مرتبة بعض الحيوانات ولا يغار علىٰ عرضه ولا يحافظ علىٰ نسائه؟!.

ونقول للّذي لا يريد أن يرتفع إلىٰ مستوىٰ دينه ويتأسىٰ بالنّبيّ ﷺ أو الصّحابة والسّلف، لا أقل أن تتأسىٰ بأهل المروءة من الجاهليين وغيرهم ممن سلمت فطرتهم.

فإن لم يتأسَّ بهم نقول له: لا تنزل عن مرتبة هذه الحيوانات البهيمة الّتي تغار علىٰ أعراضها، حتّىٰ لا تكون هي أفضل منك، والحيوانات الّتي لا غيرة لها علىٰ أعراضها هي الحيوانات الّتي يضرب بها المثل في الخسَّة وضآلة القدر، كالكلب والخنزير، فإنّهما يُعرفان بعدم الغيرة، ويُرىٰ أنّ انعدام الغيرة عند الغربيين بسبب أكلهم للخنازير ومخالطتهم للكلاب.

وإنّ أذكياء بني آدم يمدحون بعض الحيوانات، ويقدمونها علىٰ غيرها في مقام الجدل والمناظرة لاتّصافها بالغيرة، ويذمّون البعض الآخر لعدم اتّصافه بالغيرة، فهذا الجاحظ يقول في كتابه «الحيوان» في ذكر محاسن الدّيك: «.. قال جعفر: .. وهو بعد غيور يحمي دجاجته، وقال الراجز:

يغار والغيرة خلق في الذكر.

وقال الآخر: والفحل يحمي شوله معقولا».

وقال في باب مساوئ الحمام: «الحمام طائر لئيم، وإن برّ يزعمكم ولد غيره وصنع به كما يصنع بفرخه» إلىٰ أن قال: «وأما لؤمه في طريق الغيرة، فإنه يرىٰ بعينه الذكر الّذي هو أضعف منه، وهو يطرد أُنثاه، ويكسح بذنبه حولها، ويتطوس لها ويستميلها وهو يرىٰ ذلك بعينه...».

فإذا كان الحيوان البهيم الذي لا عقل له يمدح لاتّصافه بالغيرة ويُذمّ لعدم اتّصافه بها، فإنّ بني آدم أولىٰ بأن يمدحوا ويذمّوا لاتّصافهم أو لعدم اتّصافهم بالغيرة علىٰ نسائهم.

فأين غيرتك يا من تركت نساءك من زوجة أو ابنة أو أخت تخرج متبرجة متعطرة تخرج لتعرض جسدها ومفاتنها علىٰ النّاس، تخرج بملابس يندىٰ لها الجبين حياءً وتسودّ لها الوجوه حزنًا وخزيًا، تخرج لتكون مسرحًا للأعين فيتغزل فيها هذا ويجرحها بكلماته هذا، وآخر قد يقع في عشقها فيظل يفكر فيها ليل نهار، ويترصدها كل يوم ليراها ويتغزل فيها.

إنَّ الرجل عندما ينظر إلىٰ المرأة ويتغزل فيها، أو يشم منها رائحة الطّيب فإنه بذلك يكون قد نال

نوعًا من الاستمتاع بها، بل إنّ النّبيّ ﷺ قد وصف النظرة المحرمة بالزنا، فقال: «**إنّ الله كتب علىٰ ابن آدم حظّه من الزنا، فهو مدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النّظر، وزنا اللسان المنطق، وزنا اليد البطش، والنّفس تمني وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»(١).

وأيضًا وصف النّبيُّ المرأة الّتي تتطيّب ثُمَّ تمرُّ علىٰ قوم ليجدوا ريحها بأنّها زانية، وكل عينٍ نظرت إليها زانية، فقال: «**أيّما امرأة استعطرت فمرّت علىٰ قوم ليجدوا ريحها، فهي زانية، وكل عين زانية**»(٢).

فهل أيّها العاقل ترضىٰ لأهلك هذا؟ أترضىٰ أن يُشاركك غيرك في أهلك؟ ألَمْ تسمع قول الشّاعر الّذي ترك حب امرأة؛ لأنه علم أن غيره يشاركه في حبها فقط، فقال:

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٧٨٦)، وقال: حسن صحيح، وحسنه الألباني.

سأترك حبّكم من غير بُغْضٍ

وذاك لكثرة الشركاء فيه

إذا وقع الذباب علىٰ طعام

رفعتُ يدي وأنا أشتهيه

وتجتنب الأسود ورود ماء

إذا كان الكلاب يلغن فيه

إنّ الحرّ لا يرضىٰ أن يشاركه غيره في زوجته، ولو بالتّفكّر فيها أو النّظر إليها.

ولذلك لما امتنّ الله علىٰ عباده المؤمنين وذكر ما أعده لهم في جنّات النّعيم قال عن حور الجنة ونسائها: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)﴾ [الرحمن: ٧٢]، وقال أيضًا سبحانه: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقال أيضًا: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ

مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات: ٤٩]. وقال أيضًا: ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٣].

فصل

في بيان مظاهر التفريط في الغيرة

وإليك - أخي القارئ - صوراً من صور التّفريط في الغيرة والتقصير فيها، والّتي انتشرت انتشاراً كبيراً بين عموم المسلمين، وهي:

١ - ترك الرجل امرأته تسافر بلا محرم:

وهذا أمر خطير جداً؛ فإنّ المرأة ضعيفة، وقد تتعرض لأذىً من بعض الفسّاق، وما أكثرهم في زماننا، ولا تستطيع أن تحمي نفسها أو قد تفتن لاسيّما أنها ليس عليها رقيب، ولا يوجد أحد يعرفها في بلد هي غريبة عنها، والمرء لا يستحي في بلد الغربة ممّا قد يستحي منه في بلده ووطنه؛ لذلك منع النّبيُّ ﷺ المرأة من أن تسافر بلا محرم،

حتَّىٰ وإن كان سفرها لأداء فريضة الحج، فلقد جاء عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «لا يخلونّ رجل بامرأة إلاّ ومعها محرم، ولا تسافر المرأة إلاّ مع ذي محرم» فقام رجل، فقال: يا رسول الله، إنّ امرأتي خرجت حاجّة، وإنّي اكتتبتُ في غزوة كذا وكذا، فقال ﷺ: «انطلق فحجّ مع امرأتك»(١).

فهذا رجل خرج؛ ليجاهد في سبيل الله، فأمره النّبيّ ﷺ أن يعدل عن الجهاد؛ كي يرافق امرأته الّتي خرجت في سفر فاضل، ومع رفقة تقصد بيت الله الحرام، ثُمَّ إنّها قد خرجت ومضت ومع هذا كله قال النّبيّ ﷺ: «انطلق فحجّ مع امرأتك»، فالمرأة في حاجة شديدة إلىٰ من يحميها، ولقد رُويَ عن عمر: «ما بال أحدكم ثاني وساده عند امرأة مُغَزِّيَةٍ مغيبة؟! إنّ المرأة لحم علىٰ وضم إلاّ ما ذبّ عنه».

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

٢ - ترك الرجل نساءه يُصافحن الرجال الأجانب:

وهذا أمر عمّت به البلوىٰ، وصار أمر عادي من خالفه اتُّهم بالتّزمّت والتّشدد والرجعية وعدم الذوق، ولقد قال النّبيّ ﷺ: «لئن يُطعن أحدكم بمخيط من حديد في رأسه خير له من أن يمس امرأة لا تحلّ له»(١).

وقَال أيضًا ﷺ: «واليدُ تزْني وزناها البطش»(٢).

والبعض قد يدّعي أن نساءه طاهرات القلب، وكذلك من يصافحونهن، فنقول له: إنّ أطهر ولد آدم - وهو النّبيّ ﷺ - لم يكن يصافح النّساء، وقال: «إنّي لا أُصافح النّساء»(٣).

---

(١) رواه الطبراني عن معقل بن يسار، وقال الألبانيّ في صحيح الجامع: صحيح.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أميمة بنت رقيقة، وقال الألباني في صحيح الجامع: صحيح.

وامتنع عن ذلك عند بيعة النّساء، ومن المعلوم أنّ البيعة تقتضي عادة المصافحة وهو أمر جرىٰ عليه العرب، بل أكثر النّاس عليه، ومع ذلك امتنع عنه النّبيُّ ﷺ. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**لا والله، ما مسّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه يُبايعهن بالكلام**»(١).

وهذا حديث عام، فلا يجوز مصافحة الكبيرة أو الشابة، وينبغي أن يُعلم أن وضع الحائل أو المصافحة من وراء ثوب لا تُغني شيئًا فهو حرام في الحالين.

ثم نقول: من أين للمرء أن يعلم نيّات الآخرين، فإن علم ذلك راجع إلىٰ الله عز وجل، وهو الّذي قال في كتابه العزيز: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢].

---

(١) رواه ابن ماجه وأخرجه البخاري في الطلاق ومسلم في الإمارة.

ثمّ نقول للذي لا يتأثر بشيء عند مصافحة النّساء، إمّا أنّك كذّاب في دعواك، أو أنك تنادي علىٰ نفسك بنقص الرجولة والفحولة، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فإنّ الشّرع لم يعلق الحكم علىٰ التأثر أو عدمه، ثُمَّ إنّ الشَّرع جاء لجميع النّاس.

٣ - دخول الأجانب علىٰ النساء والخلوة بهنّ خاصة الأقارب:

وهذا أمر وضوح مفاسده تغني عن ذكرها، ويكفي فيه حديث عقبة بن عامر عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «**إيّاكم والدخول علىٰ النساء**» قالوا: يا رسول الله، أرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»(١). والمقصود: أنّ الحمو - وهو قريب الزوج أو الزوجة - يُفسدُ العلاقة الزوجيّة كما يُفسد الموت البدن.

---

(١) سبق تخريجه.

وقال النّبيّ ﷺ: «لا يخلونّ رجل بامرأة إلاّ كان الشيطان ثالثهما»(١).

فما الظّنُّ إذن برجل يخلو بالمرأة، وهو عنده ميل طبيعي لها، وكذلك المرأة عندها ميل طبيعي للرجل، ثمَّ إنّ النّفس البشريّة أمّارة بالسّوء، ثمّ إنّ الشيطان ثالث لهما.

ولا يظنّ أحد أن امرأته كمريم - عليها السّلام - أو أنّ الرجل الّذي يخلو بها كيوسف عليه السلام في العفة والطّهارة، بل نقول: لو كان عندهما وازع ديني ما اختليا وخالفا أمر الله تبارك وتعالىٰ وأمر النّبيّ ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وهذه الآية في نساء النّبيّ وهنّ أطهر نساء الأمة

---

(١) رواه أحمد وابن حبان في صحيحه عن ابن عمر، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

وأمّهات المؤمنين، فغيرهنّ أولىٰ وأولىٰ بعدم دخول أحد عليهن.

٤ - ترك الرجل نساءه يُشاهدن الأفلام والمسلسلات ويستمعن إلىٰ الأغاني:

من المعلوم لدىٰ الجميع أنّ ما يعرض علىٰ شاشات التلفاز من أفلام ومسلسلات وأغانٍ مخالف تمامًا؛ لتعاليم الدّين، بل منها ما يحارب تعاليم الدّين ويصدُّ عنها.

فنقول: يا رجال الأمة، كيف تتركون نساءكم يُشاهدن العهر والفجور ويستمعن إلىٰ كلمات العشق والغرام من رجال أجانب؟!.

وقد ترىٰ المرأة رجلاً أجمل من زوجها وأعذب كلامًا منه، وتستمع إلىٰ أغانيه وآهاته وهو يتغزّل في محبوبته، أو يشتكي فراقها، والخطير في الأمر أن

تقع المرأة في عشق ممثل معيّن أو مغنٍ، وهذا كثير جداً ما يقع، بل هناك من النساء من تخبر زوجها بأنّها تحب الممثل الفلاني أو يعجبها الممثل الفلاني، أو أنها تستمتع بصوت المغني الفلاني، ولقد قال يزيد بن الوليد: الغناء مفتاح الزنا.

ومن أمثال العرب: الغناء رقية الزنا.

وهذا غيض من فيض من مظاهر الفساد في هذا الأمر، وإلاّ فمفاسده كثيرة جداً، وهناك أمور لا أريد أن أرسمها بالقلم، وإنّها لتطرح في قلبي الألم، وفهم الذكي يملي عليه ما لم أُبيّنه.

٥ - ترك الرجل نساءه يُحادثن الرجال بصوت رقيق إمّا مباشرة أو عن طريق الهاتف:

فإنّ هذا الصوت قد يتأثر به الرجل، ولقد عرفنا عن بعض الرجال أنهم وقعوا في حب نساء لسماع

أصواتهن عبر الهاتف فقط دون أن يشاهدونهن؛ لذلك حذّر الله النّساء من الخضوع بالقول، فقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وقال بشّار بن برد الشّاعر العبّاسي - وكان أعمى -:

يا قوم أذُني لبعض الحيّ عاشقة

والأذنُ تعشقُ قبل العين أحيانا

ولكن مع هذا نقول: إنّ المرأة لها أن تحادث الرجال للحاجة، وعلىٰ قدر هذه الحاجة وعليها أن تكون منضبطة بالضّوابط الشّرعيّة.

٦ - أن يصف الرجل زوجته للرجل أو يدخل عليها من يعلم أنه قد يفعل ذلك:

فإنّ هذا الوصف قد يعلق بها قلوب بعض الرجال، وقال ابن شجنة الموصلي:

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم

سمعت بها، والأذن كالعين تعشق

وقال ابن القيم - في وصف أهل الغيرة - : « وكان بعضهم يمتنع من وصف محبوبه، وذكر محاسنه خشية تعريضه لحب غيره له، كما قال علي ابن عيسىٰ الرافقي:

ولستُ واصفًا أبدًا خليلاً

أعرضه لأهواء الرجال

وما بالي أشوق قلب غيري

ودون وصاله ستر الحجال

وكثير من الجهّال وصفَ امرأته ومحاسنها لغيره، فكان ذلك سببًا في فراقها له واتّصالها به.

وقال في موضع آخر: فكثير من الناس يحب غيره

ويفنىٰ فيه محبة، وما رآه ولكن وُصف له، ولهذا نهَىٰ النَّبيُّ ﷺ المرأة أن تنعت المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها، والحديث رواه البخاري» اهـ.

قلتُ: والوصف أيضًا قد يجعل الرجل يتطلّع لرؤية المرأة فيحتال لرؤيتها لاسيما إذا وقع في حبها، وقال الشّاعر:

وصفوها فلم أزل علم اللـ
ـه كئيبًا مستولها مستهاما
هل عليها في نظرة من جناح
من فتىٰ لا يزور إلاّ لماما

٧ - أن يسافر الرجل ويترك زوجته لفترة طويلة:

وهذا قد يؤدي بها إلىٰ الافتتان فإنّ المرأة تحتاج إلىٰ زوجها وقد لا تصبر علىٰ فراقه مدة طويلة.

والمرأة قد لا ترعىٰ أمانة زوجها إذا غاب عنها فترة طويلة، وقال الشّاعر:

أَعُليَّ ما ماء الفرات وبرده
مني علىٰ ظمإٍ وفقد شراب
بألذّ منك وإن نأيتُ وقلّما
يرعىٰ النّساء أمانة الغُيَّاب

فإما أن يقصر مدّة السّفر أو يأخذ زوجته معه، ولا يمنعه من ذلك كثرة النفقة فإنّ الحفاظ علىٰ الزوجة لا يُقدّر بمال.

ولقد روىٰ الإمام مالك في الموطأ عن عمرو بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه
وأرقني ألا خليل ألاعبه

فـوالله لـولا الله أني أراقـبـه
لحرّك من هذا السّرير جوانبه

فسأل ابنته حفصة عن أكثر مدة تصبر فيها المرأة عن زوجها، فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر، فقال: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك».

٨ - ترك الرجل زوجته تخرج متبرجة متعطرة للعمل الّذي يختلط فيه الرجال بالنساء:

وهذا الأمر من أخطر مظاهر التفريط في الغيرة، بل هو أخطرها علىٰ الإطلاق؛ لأنّ طبيعة العمل الّذي لا ينبني علىٰ أسس شرعية يستدعي أن تختلط المرأة بالرجل، وقد يجلس معها مدةً طويلة، ومن المعلوم أنّ طول العشرة يُذهب الحشمة، ويدعو للأنس، فرجل يجلس مع امرأة مدةً طويلة ويحادثها وتحادثه، أليس هذا مدعاة للوقوع في الفاحشة أو علىٰ الأقل

حصول العشق بينهما، ولَقَدْ قيل لامرأة شريفة زنت بعبد لها: لمَ زنَيْتِ؟ قالت: لطول السّواد وقرب الوساد، تعني أنّ المكان الّذي ينام فيه قريب من مكانها، فمع أنّها شريفة وهو عبد لها، إلاّ أنها مكّنته من نفسها.

وقال الشّاعر:

وأعظم ما يكون الشوق يومًا

إذا دنت الخيام من الخيام

وقال مجنون ليلىٰ (قيس بن الملوح):

أمــرّ علىٰ الدّيار ديار ليلىٰ

أُقــبّلُ ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الدّيار شغفن قلبي

ولكن حبّ من سكن الدّيار

فإذا كانت رؤية الدّيار تهيّج مشاعر الحب فما الحال إذن إذا رأىٰ الرجل المرأة نفسها.

وإنّ رؤية الرجل للمرأة مدعاة لوقوع الألفة والمحبة بينهما؛ لذلك قال النّبيُّ ﷺ لمن أراد أن يخطب امرأة أن ينظر إليها، وعلل ذلك بحصول الألفة، فقال ﷺ: «إذا خطب أحدكم امرأة فلينظر إلىٰ ما يدعوه إلىٰ نكاحها؛ فإنّه أحرىٰ أن يؤدم بينهما» (١).

فالنّظر إلىٰ المرأة ليس بالأمر الهيّن؛ ولذلك قال النّبيُّ ﷺ لعليّ رضي الله عنه: «يا عليّ لا تُتبع النّظرة النّظرة؛ فإنَّ لك الأولىٰ، وليست لك الآخرة» (٢).

وقال جرير: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة قال: «اصرف بصرك» (٣).

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، وقال الألبانيُّ: صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود، وحسّنه الألبانيُّ.

(٣) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، برقم (١٤٦٦).

وقال تعالىٰ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠]. فحفظ الفرج لا يكون إلاّ بغضّ البصر؛ ولذلك قيل: النظرة بريد الزّنا، وقال الشّاعر:

كل الحوادث مبدأها من النظر

ومعظم النّار من مستصغر الشّرر

ولا يشترط أن تكون المرأة علىٰ درجة عالية من الجمال حتىٰ يقع الرجل في عشقها أو يُفتتن بها؛ فإنّ الجمال وإن كان أمر تطلبه النّفس وتركن إليه إلاّ أن العشق إنّما يأتي عن تناسب الأرواح وتشاكلها، وقال الشاعر:

فكل امرئ يصبو إلىٰ ما يناسبه

وقال الآخر:

وما الحب من حسن ولا ملاحة

ولكنه شيء به الروح تَكْلَفُ

ولمّا دخلت عزة الّتي تغزّل فيها كُثَيِّرٌ(١) كثيراً وشبب بها علىٰ الحجاج، قال: والله يا عزّة، ما أراك كما وصفك كثير. قالت: يا أمير المؤمنين، إنّه رآني بعين غير الّتي رأيتني بها.

وأريد أن أقول: قد يكون بين الرجل وزوجته مشاكل والأمر لا يخلو أما زميلها فليست بينه وبينها أية مشاكل، فقد تأنس المرأة معه أكثر من زوجها، وأيضًا هي لم تطلع علىٰ عيوب زميلها، أمّا زوجها فقد اطّلعت علىٰ عيوبه، فتظنّ أنّ زميلها مبرأ من تلك العيوب، فتجد فيه ما لا تجد في زوجها، فلماذا أيّها العاقل تُعرّض زوجتك لكل هذا؟!.

٩ - خروج المرأة من بيتها بغير الضوابط الشّرعيّة:

وهذا يجعلها حديث كثير من النّاس، وأهل الفضل والمروءة يأنفون من أن يتناول النّاس نساءهم في حديثهم ويجعلون هذا من السبّة لهم.

(١) شاعر معروف.

قال الجاحظ في «البيان والتبيين»: « ودعا جرير رجلاً من بني كلاب إلىٰ مهاجاته، فقال الكلابي: إنّ نسائي بأمتهن (أي: بحالتهن) ولم تدع الشّعراء في نسائك مترقعًا (موضع الشّتم).

وخروج المرأة من بيتها متبرجة متعطرة هذا يجعل كثير من الفساق ينظرون إليها، فتكون مسرحًا لأعينهم يفتكونها بأبصارهم، ويتغزّلون فيها، وقد قال الشّاعر:

يقولون لا تنظر وتلك بليّة

ألا كل ذي عينين لابد ناظر

وقال عمر بن أبي ربيعة المخزوميّ:

وكم مالئ عينيه من شيء غيره

إذا راح نحو الجمرة البيض كالدُّمىٰ

وقال ابنُ القيّم: قال الأصمعيّ: رأيتُ جارية في الطّواف كأنّها مهاةٌ، فجعلتُ أنظر إليها وأملأ عيني من محاسنها، فقالت: يا هذا، ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النّظر؟ فأنشأت تقول:

وكُنْتَ متىٰ أرسلتَ طرفك رائداً
يومًا لقلبك أتعبتك المناظر
رَأَيْتَ الّذي لا كله أنت قادر
عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

فهذا كان في عبادة من أعظم العبادات، ويشهد له بالفضل، ومع ذلك غلبته محاسن المرأة، فما حال كثير من فُسّاق زماننا الّذين ينتشرون في الطُّرُقات ليترقّبوا النّساء وينظروا إليهنّ.

١٠ - ترك الرّجل نساءه يخرجن إلىٰ المُنتديات العامة والشّواطئ الّتي يختلط فيها الرجال مع النّساء:

وهذا أمر في غاية الفساد والقبح ويتبيّن عظم قبحه من نفي النّبيّ الإيمان عن الّذي يفعل شيئًا كهذا، فلقد روىٰ الحاكم في المستدرك عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فلا يُدخل حليلته الحمّام، ومن كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلاّ بمئزر، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس علىٰ مائدة يُدار عليها الخمر**». وقال صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يُخرّجاه.

ومظاهر الفساد علىٰ الشّواطئ لا تحتاج إلىٰ أن توضّح فهي معروفة لدىٰ الجميع.

فصل

في أنّ من دواعي الغيرة اختيار الزوجة الصالحة

إنّ من دواعي الغيرة والأنفة أن يختار المرء زوجة صالحة، فيكون اختياره لها علىٰ أساس الدّين قبل كل شيء، فإنّ النّبيّ ﷺ قال: «**تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها ونسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدّين تربت يداك**»(١).

وتأمّل قوله ﷺ: «**اظفر**» فكأنّ التّزوّج بامرأة ذات دين فوز وفلاح لا يستطيعه كل أحد، وإنّما يقع لبعض أهل الهمة العالية، والمرأة ذات الدين هي خير متاع الدنيا كما قال النّبيُّ ﷺ: «**الدُّنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة**».

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

فالغيور يختار هذا الصّنف من النساء؛ حتىٰ تحفظه في نفسها إذا غاب عنها، فلا تخونه في شيء، ويكون مطمئنًا عليها، ولا يخاف أن تُدنِّس عرضه مع أحد، ولا تجعل أحداً يتكلم في عرضه بأذىٰ، ولقد أوصىٰ رجل من العرب ولده عندما أراد التّزوّج فقال له: «يا بُنيّ لا تتخذها حنّانة، ولا منّانة، ولا عشبة الدّار، ولا كبة القفا».

وجاء في معنىٰ كبة القفا: الّتي يأتي زوجها أو ابنها القوم، فإذا انصرف من عندهم قال رجل من جبناء القوم: قد والله كان بيني وبين امرأة هذا المولىٰ أو أمه أمر.

فالغيور يأنف أن يتكلم في عرضه أحد فلا يتزوج بامرأة كانت لها علاقة بأحد قبله أو تكون موضع التهمة أو موضع كلام الناس فيتزوج من شريفة

عفيفة غير متكلم فيها بسوء فإنّ كلام النّاس في الزوجة يُعدّ مسبّة ومنقصة لزوجها كما قيل: إنّ جريراً دعا رجلاً من بني كلاب إلىٰ مهاجاته، فقال الكلابيّ: إنّ نسائي بأمتهن (أي بحالتهن) ولم تدع الشعراء في نسائك مترقعًا.

وقال الشّاعر:

وإن تزوّجت فكن حاذقًا

واسأل عن الغصن وعن منبته

واسأل عن الصّهر وعن أحواله

من جيرة وذي قربته

ولا يتزوّج بامرأة كثيرة الخروج والولوج؛ فإنّ هذا مذموم في المرأة، ولقد قدّمنا أدلة علىٰ ذلك فيما سبق.

وعليه أيضًا أن يُلزم زوجته بالآداب الشّرعيّة، فلا

تخرج من بيته إلاّ بإذنه، ولا تُكثر الخروج لغير حاجة مباحة، وعليه أن يُربّي بناته علىٰ العفّة والطّهارة والنّزاهة، فيحكي لهنّ قصص العفيفات؛ حتّىٰ يتأسّين بهنّ، ويُخبرهن بما ورد في في الكتاب والسُّنّة من الأمر بالحجاب والتستّر والعفّة.

ولقد قال أحدهم: لا تعلموا بناتكم الكتاب ولا ترووهنَّ الشعر، وعلموهن من القرآن سورة النور.

وقال آخر: بنو فلان يعجبهم أن يكون نساءهم أباضيات ويؤخذن بحفظ سورة النور.

وسورة النور هي سورة الستر والعفاف؛ فهي تدعو إلىٰ التستر وأن تلتزم المرأة بالحجاب.

ولا يدعهنّ يستمعن إلىٰ الأغاني؛ فقد قيل: الغناء رقية الزنا، وقال يزيد بن الوليد: إيّاكم والغناء؛ فإنّه مفتاح الزناء.

وعليه أن يترقب أحوالهن وينصحهن من وقت لآخر؛ فإنّه مسؤول عن أهله، كما قال النّبيّ ﷺ: «والرّجل في بيته مسؤول عن رعيته»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وعليه أن يغرس في نفوسهن فضل العفة وفضل التستر، وأنّ هذا يزيد من مكانة المرأة ويرفع من قدرها، وأن التبرج والتبذّل والسّفور يحطّ من مكانتها ويفقدها قيمتها.

ولا ينسَ أنّ أول خطوة وأهم خطوة في تربية الأبناء والبنات هو اختيار الزوجة، فإن كنت تغار علىٰ بناتك فاختر زوجة صالحة، قال الجاحظ في «البيان والتبيين» قال عثمان بن أبي العاص لبنيه:

---

(١) سبق تخريجه.

« يا بَنِيّ، إنّي قد أمجدتكم في أمهاتكم، وأحسنت في مهنة أموالكم، وإنّي ما جلست في ظل رجل من ثقيف أشتم عرضه، والناكح مغترس، فلينظر امرؤ منكم حيث يضع غرسه، والعرق السّوء قلّما ينجب ولو بعد حين»، فلمّا سمع ابن عباس هذا الكلام قال لغلامه: « يا غلام، اكتب لنا هذا الحديث».

وليعلم أنّ التفريط في إصلاح الزوجة وتربية البنات قد يكون سببًا في دخوله النار، ولا يوجد أحد غالٍ – علىٰ الإطلاق – يستحق أن يدخل النار بسببه، قال تعالىٰ: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) ﴾

[المعارج: ١١ – ١٤].

فصل

في بيان أنّ العفة من دواعي الغيرة

فإنّ من أطلق بصره إلىٰ النّساء، أو تحرّش بهن، أو تغزّل فيهن، وتكلم معهن بكلام لايجوز شرعًا خُشِيَ عليه أن تقع نساؤه في مثل هذا، ومن تعفّف عن ذلك فإنّ نساءه يتعفّفن أيضًا كذلك، ولقد رُوِيَ عَنِ النّبيِّ ﷺ أنَّهُ قَالَ: «اعمل ما شئت كما تدين تُدان»(١).

ولقد جاء في أمثال العرب: ما فجرَ غيورٌ قطّ.

يعني أنّ الغيور علىٰ عرضه وأهله لا يوقع نفسه في فاحشة؛ حتىٰ لا تقع نساؤه في مثل ما وقع فيه.

---

(١) ضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ولكن هناك أدلة تدل علىٰ أنّ الجزاء من جنس العمل، فمعنىٰ الحديث صحيح.

ولقد قال الشَّافعيُّ:

عفوا تعف نساؤكم في المحرم

وتجنبوا ما لا يليق بمسلم

من يَزْنِ يُزْنَ به ولو بجداره

إن كنت يا هذا لبيباً فافهم

إنّ الزنا دَيْنٌ فإنْ أقرضته

كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

نداء إلى إخواني

إخواني في الله – عزّ وجلّ – يا من أحسبهم من الفضل والتّديّن والمروءة، هناك أمور يضيق بها صدري، وأحزن لها حزنًا شديداً وأقول في نفسي: لا ينبغي لأهل الفضل أن يقعوا في مثل هذه الأمور، والّتي تنافي الغيرة علىٰ نساء المسلمين.

وأقول لكم – ولا أجاملكم –: إنَّكم أيّها الملتزمون تُساهمون في غرس الفساد في المجتمع الإسلاميّ دون أن تشعروا.. كيف ذلك؟

أقول: كثير من أهل التّديّن والّذين نحسبهم علىٰ خيرٍ إذا تقدّم إليهم رجل مُتديّن يُريد الخِطْبة؛ فإنّهم يتركون الشّرع وراءهم ظهريًا ويعاملوه بعادات

وتقاليد المجتمع الفاسد، فيُغالون في المهور، ويُحمّلوه تكاليفًا لا يطيقها.

فاتّباع بعض الملتزمين لتقاليد المجتمع في مثل هذا يؤدي إلىٰ صعوبة الزواج، والذي قد يوقع بعض الإخوة في الافتتان، وقد يؤدي أيضًا إلىٰ تركه الالتزام بالكليّة وسلوكه مسلكًا غير شريف.

فأين الغيرة إذن علىٰ هذا المجتمع المسلم، وعلىٰ أعراض المسلمين، مشكلتنا أننا لم نؤمن إيمانًا جيدًا.

أيها الأخوة، يجب علينا جميعًا أن نيسّر أمر الزواج لمن أراد أن يتزوج؛ حتىٰ نساعد علىٰ العفة والتحصن من الوقوع في الفاحشة.

ويجب علينا أن نتبع قول النّبيّ ﷺ: «إذا جاءكم من ترضونَ دينه وخُلُقه فزوّجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»

ونعلم أنّ النّبيّ ﷺ قال أيضًا: «أكثرهنّ بركة أقلّهنّ مهرًا»

وثمّة أمر آخر، وهو أنّ بعض الأخوة الأفاضل يتركون نساءهم يخرجن بالنّقاب المتبرج؛ فالمرأة قد ترتدي النّقاب، ولكنّها قد تظهر عينيها وجزءًا من الوجه، وتظنّ أنها بذلك قد فعلت ما عليها.

نقول: اعلموا أيها الأخوة أنّ النقاب الّذي علىٰ هذه الصورة يكون أكثر فتنة ممّا إذا كشفت المرأة وجهها كله؛ وذلك لأنّ المرأة قد تكون قبيحة أو ليست علىٰ درجة عالية من الجمال، فإذا لبست النقاب، وأظهرت عينيها وجزءًا من الوجه تبدو في غاية الحسن والجمال؛ فيؤدي إلىٰ افتتان الرجال بها خاصة أهل الفضل والصّلاح.

قال ابن القيّم في «روضة المحبّين»:

وقال بعض الأعراب وقد نظر إلىٰ امرأة مبرقعة:

إذا بارك الله في ملبس
فلا بارك الله في البرقع
يريك عيون المها مسبلا
ويكشف عن منظر أشنع

فيا أيّها الأخوة، كونوا غيورين علىٰ نسائكم ولا تتركوهنَّ يخرجن بهذه الطريقة، وبيّنوا لهنّ أنّه ينبغي عليهنّ إذا سترن وجوههن فعليهنّ أن يسترن العينان أيضاً.

فصل
في بيان الغيرة المذمومة

وينبغي ألاّ يشتط أحد في أمر الغيرة، ولا يتجاوز بها حدَّ الاعتدال؛ فخير الأمور ما كان وسطًا، فإنّ الإفراط في الغيرة قد يؤدّي إلىٰ الوسوسة وسوء الظنّ بالمرأة.

ولقد جاء في الحديث الّذي يرويه جابر بن عتيك مرفوعًا: «إنّ من الغيرة ما يحبها الله، ومنها ما يبغضها الله، فالّتي يبغضها الله الغيرة في غير ريبة»(١).

فالمرأة قد تكون ملتزمة بالحجاب الشّرعيّ وبالضّوابط الشّرعيّة، ولكن شدّة الغيرة قد تحمل

(١) رواه أبو داود (٢٦٥٩)، وقال الألباني: حسن.

الرّجل علىٰ تفسير أي موقف علىٰ سوء الظنّ، ولقد قال – عز وجل – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢]، وقال النّبيّ ﷺ : «إيّاكم والظّنّ ؛ فإنّ الظنّ أكذب الحديث»

فشدّة الغيرة تجعل المرء لا يحكم عقله، بل ينساق وراء ظنونه ووسوسة الشيطان له، ولقد قال سهل بن هارون : ثلاثة يعودون إلىٰ أجنّ المجانين، وإن كانوا أعقل العقلاء : الغضبان، والغيران، والسكران » .

ومن الأشياء التي يجب علىٰ المرء أن يتفطّن إليها أنّ الشّيطان قد يدخل للمرء من باب الغيرة ويجعله يُبالغ فيها حتىٰ يفرق بينه وبين زوجته، وهو من الشّرَك الّذي ينصبه لبني آدم، وهذا أمرٌ يتمنّاه الشّيطان .

وجاء في الحديث الّذي رواه مسلم: «أنّ الشيطان ينصب عرشه علىٰ الماء، ثم يرسل سراياه تترىٰ إلىٰ بني آدم، فيجيئه أحدهم، فيقول: لم أزل به حتّىٰ زنىٰ، فيقول: ما فعلت شيئًا. فيجيئه آخر فيقول: لم أزل به حتّىٰ فرّقت بينه وبين زوجته، فيقول: أنت أنت، نعم أنت، ويلتزمه»

وقال ابن القيّم في «الجواب الكافي»: «وفي الصحيح: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشّرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك أثنىٰ علىٰ نفسه» فجمع في هذا الحديث بين الغيرة الّتي أصلها كراهة القبائح وبغضها وبين محبة العذر الّذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان،

والله سبحانه مع شدّة غيرته يحب أن يعتذر إليه عبده ويقبل عذر من اعتذر إليه، وأنّه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه، حتىٰ يعذر إليهم، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ إعذاراً وإنذاراً، وهذا غاية المجد والإحسان، ونهاية الكمال؛ فإنّ كثيراً ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدّة الغيرة علىٰ أن لا يقبل عذراً وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله علىٰ قبولها قلّة الغيرة، حتّىٰ يتوسّع في طريق المعاذير، ويرىٰ عذراً ما ليس بعذر، وكل منهما غير ممدوح علىٰ الإطلاق.

وقد صحّ عن النّبيّ ﷺ أنه قال: «**إنّ من الغيرة ما يحبها الله، ومنها ما يبغضها الله، فالّتي يبغضها الله الغيرة في غير ريبة**» وذكر الحديث.

وإنّما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر فيغار في محل

الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومن كان هكذا، فهو الممدوح حقًا، ولمّا جمع الله صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد، ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسه وأثنىٰ علىٰ نفسه؛ فالغيور قد وافق ربّه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصّفة إليه بزمامه، وأدخلته علىٰ ربّه وأدنته منه وقرّبته من رحمته وصيرته محبوبًا له... إلخ».

وقال في «روضة المحبين»: «وغيرة العبد علىٰ محبوبه نوعان: غيرة ممدوحة يحبها الله، وغيرة مذمومة يكرهها الله، فالّتي يحبّها الله أن يغار عند قيام الريبة، والّتي يكرهها أن يغار في غير ريبة، بل من مجرد سوء الظنّ، وهذه الغيرة تُفسد المحبّة وتوقع العداوة بين المحب ومحبوبه.

وفي المسند وغيره عنه ﷺ قال: «الغيرة غيرتان: فغيرة يحبّها الله، وأخرىٰ يكرهها الله» قلنا: يا رسول الله، ما الغيرة التي يحبها الله؟ قال: «أن لا تؤتىٰ معاصيه، أو تنتهك محارمه» قلنا: فما الغيرة الّتي يكرهها الله؟ قال: «غيرة أحدكم في غير كنهه»

وفي الصحيح عنه ﷺ: «إنّ من الغيرة ما يُحبُّ الله، ومنها ما يكره الله؛ فالغيرة الّتي يُحبّها الله الغيرة في الريبة، وأما الغيرة الّتي يكرهها الله الغيرة في غير ريبة»

وفي الصحيح عنه ﷺ أنّه قال: «أتعجبون من غيرة سعد، لأنا أغير منه، والله أغير منّي»

وقال عبد الله بن شداد: «**الغيرة غيرتان: غيرة يُصلح الرجل بها أهله، وغيرة تُدخله النار**».